المسألة الليبيّة

أضواء على مسيرة الوفاق

قد يبدو الكلام في هذا الموضوع وكأنه قد فات أوانه أو أنه ـ على الأقل ـ قد تأخر كثيراً، ولكنا، ما زلنا نرى أن المسألة الليبية التي خلقتها السياسة الأمريكية، والتهديد الأمريكي. بحشد الأساطيل على شواطىء ليبيا، ومهاجمة طائراتها وإسقاطها، على الأسلوب ذاته الذي تم فيه الهجوم الأمريكي السابق على القطر الشقيق ما زلنا نرى، أن هذه المسألة، تتصل بحركة الوفاق في الصميم، فهي من ناحية، يمكن أن تكشف الأسلوب الذي اعتمده الرئيسان، الأمريكي والروسي، في التعامل مع الدول الصغيرة، ووضعها في إطار المخططات «المرسومة»، أو إنهم فعلاً قد اتفقوا على تقاسم النفوذ على الكرة الأرضية، وأن ليبيا، وربما المنطقة العربية بكاملها، قد أصبحت من حصة الشريك الأمريكي..!، يضاف إلى ما تقدم خصوصية العلاقات العربية الأمريكية التي تجمع أغرب وأعجب النقائض، فعلى الرغم من المواقف الأمريكية المعلنة ضد الحق العربي في فلسطين، وحلفها الدائم مع الصهيونية، فإن الأنظمة العربية عموماً، لم تتخذ ما يمليه مثل هذا الموقف من المصالح الأمريكية، بل على العكس من ذلك، فان المصالح الأمريكية في المنطقة العربية

تبدو وكأنها في معزل عن سياستها التي تمارسها ضد العرب. وخصوصية هذه العلاقات الغريبة، تحتم الكلام والحوار المستمر بين العرب، هذا الحوار العربي الذي يتحول في أكثر الأحيان إلى الشكوى والصراخ... أو «شق الثوب» كما تقول أمثالنا، بل إن الانحياز الأمريكي الكامل والمتجدد ضد العرب، يشكل استفزازاً دائماً للشعب العربي، والشعوب الإسلامية، التي لم يكف حكامها يوماً عن التعامل مع أمريكا، في الوقت الذي تغطي فيه بضائعها الأسواق العربية، وتحتل الاستثمارات والاحتكارات الأمريكية الجانب الأكبر من كنوز هذا العالم العربي وخيراته.. لم تكف السياسة الأمريكية يوماً عن استفزاز هذه الشعوب، خاصة بـ «الفيتو» الحاضر دائماً، لإفشال أي قرار للأمم المتحدة، يمكن أن يتعرض للتصرف العدواني الإسرائيلي على فلسطين وعلى أهل فلسطين، باللوم أو التنديد.

نقول لم تكف أمريكا، ولم تكتف باستفزازها المستمر للشعوب العربية والأنظمة العربية فيما يتصل بالصهيونية وعدوانها على فلسطين، وإنما أضافت إليه، هذا التعامل غير المسبوق مع ليبيا، وكأنها لم تجد في طول هذا العالم وعرضه، حائطاً «أوطأ» من هذا الحائط العربي، لتخصه بتهديداتها، وتحاصره بأسطولها، وطائراتها، ثم تضربه، وتسقط طائراته، والعالم كله، بشرقه وغربه يتفرج في لا مبالاة على هذه المأساة الدولية.. اللهم إلا بعض برقيات الشجب والاستنكار من الدول العربية، وبعض دول المعسكر الشرقي.. تفعل ذلك بمثل هذه الجرأة وكأنها بهذا الصنيع ضد ليبيا، تهدد من خلاله العرب أولاً، وكل

الناشزين أو الخارجين على سياساتها والمتمردين على نفوذها في العالم أجمع.

من خلال هذا العدوان الأمريكي المشحون بالكبر، واللامبالاة والمصبوغ بخيلاء القوة، وعرض العضلات التي خرجت «مرخية» من فيتنام، ولكن الإنسان العربي العادي الذي يعاني هو أولاً من آثار الخلافات العربية، لا يقف طويلاً وقت الأزمة عندما يصيبه من هذه الخلافات، فليبيا عنده هي جزء من وطنه العربي الكبير، وشعبها هو جزء أصيل من شعبه، ولعل تصرف المواطن المصري، مصطفى عبد المجيد في قبرص، هو التعبير الصحيح، الذي يكشف نفسية هذا الإنسان، ومدى تأثره من العدوان الأمريكي على ليبيا. فلقد نقلت وكالة «رويتر» للأنباء، لمراسلها في «ليماسول» في السابع من يناير الماضي، أن الشرطة القبرصية قد أعلنت أن مواطناً مصرياً يعيش في «ليماسول» القبرصية، قد أشعل النار في ثيابه، احتجاجاً على إسقاط المقاتلات الأمريكية للطائرات الليبية، ويقول النبأ «إن زوجة مصطفى عبد المجيد، قد عثرت عليه ملقى على الأرض في منزلهما، وأسرعت إلى الجيران الذين نقلوه إلى المستشفى، وتقول الشرطة التي تولت التحقيق في الحادث، أن عبد المجيد قال لأطبائه، إنه أشعل النار في نفسه، فور سماعه نبأ الهجوم الأمريكي»!

وإذا كانت أجهزة الإعلام العربية والعالمية لم تعمم مثل هذا النبأ، ليطرق سمع كل مواطن عربي في الوطن العربي الكبير،

فإن صنيع هذا العربي، سيظل الشاهد الصدق، على مدى الغضب الذي اجتاح الأمة العربية، وعمق الهوان واليأس الذي يحس به الإنسان العربي، أمام هذا التبجح الأمريكي بالقوة الذي يجب أن لا يواجه إلا بقوة مماثلة!

وإذا كنا نختلف مع الرئيس القذافي في كثير من آرائه فإننا لا نختلف في أنه لا يتحمل وحده لوم الإنسان العربي بسبب هذا الواقع المحزن. فالرئيس الليبي يعرف اليوم أكثر من غيره أن عزوته وسنده الحقيقي، إنما هو ذلك الإنسان العربي حيثما كان، وكذلك الدول العربية دون استثناء، على الرغم مما بينه وبينها من خلافات وخصومات، ذلك لأن مثل هذه المصيبة حين تقع على قطر عربي، فكأنما تقع على الأقطار والشعوب العربية جميعاً، وإذا كان التهديد والضرب لليبيا اليوم، فقد يكون غداً على واحدة من جيرانها، مثلما يقع على كل دولة قد تشق عصا طاعة السلطان الأمريكي أو أن تتصدى للمصالح الأمريكية التي قد تتعارض مع مصالحها في هذه المنطقة من العالم.

إننا لا نحب أن تشدنا هذه الجمل «الاعتراضية» بعيداً عن صلب موضوعنا الرئيسي، لكنها مجرد سانحة تقودنا إلى التساؤل هل كانت أمريكا تستطيع أن تفعل هذا الفعل في فلسطين أو ليبيا، لو كان البناء العربي قوياً ومتماسكاً تستظل به أمة عربية واحدة!؟

وإذا كنا نترك للزمن تلك المؤثرات التي ينحتها التصرف

الأمريكي في الذاكرة العربية، فان الذي يحتاج إلى المراجعة الآنية، هو مدى انعكاس مثل هذا التصرف على طبيعة الوفاق الدولي بين الشريكين، أمريكا وروسيا، وهل يتم التعامل مع كل المشكلات المشابهة، والتي قد تطرأ على المسيرة الدولية في أية لحظة، بنفس الأسلوب الذي تتعامل به أمريكا مع ليبيا..؟ فسبب التهديد الأمريكي المعلن، وحشد أساطيلها وطائراتها قبالة الساحل الليبي، هو مصنع الأدوية الذي تبنيه ليبيا في محلة «الرابطة» وتصر أمريكا على أنه مصمم لإنتاج الأسلحة الكيميائية..!

السؤال هو، هل اتفق القطبان، امريكا وروسيا، على منع انتاج الأسلحة الكيميائية، خارج مصانعهما وخارج التعليمات التي تصدرانها!؟ وهل يفسر هذا نعومة الشجب الروسي للتصرف الأمريكي.. وإذا افترضنا جدلاً أن الادعاء الأمريكي صحيح، فإن في الساحة العالميةدولاً كثيرة تملك وما زالت تنتج هذا السلاح، حتى ليقال: إنه هو قنبلة الدول الفقيرة النووية..!

فلماذا «تتمرجل» أمريكا على هذا البلد العربي وحده؟، وإذا كانت الدعاية الأمريكية تقول: إن السلاح الكيميائي الليبي سيوجه إلى اسرائيل، فإن أمريكا وروسيا معاً، تعرفان أن اسرائيل تملك هذا السلاح، وتملك إلى جانبه القنابل الذرية، ثم هل يمكن أن يحد التصرف الأمريكي ضد ليبيا من خطر انتشار هذا السلاح المدمر..؟ وهل تصلح أمريكا حكماً وقاضياً في تحديد

من يملك ومن لا يملك بالنسبة لهذا السلاح، وهي تكيل بكيلين وتزن بميزانين!؟

وإذا كانت الترسانة الروسية والمخزون الأمريكي من هذا السلاح، يكفي ـ كما يقال ـ لتدمير العالم مرات عدة، فإن وكالات الأنباء تتحدث عن تجارب جديدة في أمريكا لإنتاج أصناف جديدة من هذا السلاح.. فكيف تنهى عن أمر وتأتي بأشنع منه... وهل تستطيع بملاحقتها للشركات الألمانية وغير الألمانية التي تتهمها بالمساعدة في بناء مصنع «الرابطة» أن تمنع انتشار هذا السلاح على مستوى الكرة الأرضية، وهي لم تستطع أن تمنع طالباً من طلابها أن يزرع الخراب في نظم الحاسبات عندها.. وتعرف أن مجموعة من طلاب إحدى الجامعات قد استطاعوا تركيب القنبلة النووية.. فكيف تستطيع الحد من هذا السلاح، إلا إذا أمكن لها أن تحجر على العقل البشري، والتصرف البشري جملة على هذه الأرض!؟

إن واحدة من نظريات داروين وهي «البقاء للأصلح» أو بتعبير آخر: «البقاء للأقوى»، قد تجذرت في مسيرة الحضارة الغربية، ولعل تلك النظرية هي التي ضمنت للأمريكان والإسبان والبرتغاليين والمستعمر الأوروبي عموماً، التخلص من الأجناس البشرية التي كانت تستوطن الأمريكتين، واستراليا، والجزر الكثيرة المنثورة في المحيطات.. هذه النظرية التي ما زال صاحب القرار الأمريكي يتبناها، حتى بعد امتلاك الإنسان للقنابل الذرية والأسلحة الكيميائية والبيولوجية، لم تعد تصلح

لعالم اليوم المقبل على القرن الواحد والعشرين. . بل إنها يجب أن تتحول إلى «البقاء للجميع» ـ الضعيف والقوي على السواء ـ أو لابقاء على الإطلاق، فإذا كانت الدول الكبرى تستطيع أن تملك تكنولوجيا السلاح النووي وهو الأصعب والأرقى، فإن الفقراء يستطيعون أن يصلوا إلى عملية إنتاج السلاح الكيميائي، وهو سلاح مدمر على كل حال، وحين تأتي حتمية ساعة القرار يستطيع الضعيف أن يقول للأقوياء «علي وعلى اعدائي»!!

وبعد، فلقد فتح الحصار الأمريكي للشواطىء الليبية جروحاً كثيرة في النفس العربية، وفي نفوس شعوب العالم الثالث عموماً، مثلما كشف آفاقاً ليست في مصلحة الوفاق ، ولا في مصلحة أمريكا ذاتها.

وإذا ما تولت شريكتا الوفاق، متفقتان أو كل على حدة، مسؤولية الحكم والفصل والتنفيذ، دون مشاركة إجماعية من العالم، في موضوع المخالفات التي قد يتعرض لها موضوع الوفاق الدولي، فإن هذا الوفاق ينزلق سريعاً نحو مهب الرياح العاتية. !